

الطموح انساني النجم

للفرد والأمة

الطموح خليفة إنسانية نافعة ، قام على أساسها كل ما نراه من مظاهر لرقى الإنسانى و هذا العالم ، ويبدو أنها صفة خاصة بالإنسان دون بقية الوجود الحيوانى ، وأنها هى السبب فى قفزه درجات سلم النشوء والارتقاء بينا الحيوان حتى الفصائل العليا منه قابع فى الدرك لا يطمح الى أعلى ! ولكن أفراد النوع الإنسانى ليسوا ذوى نصيب واحد من هذه الخليقة ، بل يبدو أن بعض الشعوب تمتاز على بعضها الآخر فى هذه الصفة ، وإن كان تقسيم الجنس البشرى الى أجناس وتحديد ميزات لكل جنس فيه كثير من الخلط والتعسف ومجانبة التحقيق العلمى الى حد كبير .

غير أن هذا لا ينفى أن البيئة العامة فى شعب من الشعوب قد تزيد هذه الصفة بروزاً ، بينما هى فى شعب آخر قد تعمل على قتل الطموح الفردى والقومى بصفة مؤقتة أو مستديمة . وأقرب الأمثلة فى الوقت الحاضر على البيئة التى تذكر فى النفس خلية الطموح هى البيئة الأمريكية ، ذلك أنها تطلق الفرد من جميع القيود والواجبات التى تحد من نشاطه أو تقف بمطامحه عند أفق خاص ، ثم هى من ناحية أخرى ترحب بالطامحين والمغامرين وتشجعهم وتعصفق لهم بحيث تغرى الآخرين على الطموح وتغذى فى نفوسهم هذا الاحساس . وقد مرصت دور السينما منذ أسابيع رواية اسمها " مدينة للفرز " تمثل هذه اخانة أوضح تمثيل ، والمدينة المقصودة هى مدينة "نيويورك" التى يعيش الناس فيها وكأنهم فى ميدان سباق دائم وغزو دائم هم كل فرد فيه أن يصبح بطلاً فى شىء ما ، وأن يفوز بقصب السبق فى ناحية من النواحي .

وأقرب الأمثلة على البيئة الأخرى التى تقتل الطموح فى النفس الإنسانية هى بيئة الاستعمار على وجه عام ، فأول ما يقصد إليه الاستعمار قصد هو قتل روح الطموح فى الأمم المستعمرة أفراداً وجماعات حتى يحسن لنفسه أطول أمد محكم وأكبر نصيب من الاستغلال . على أن عهود الاضمحلال فى جميع الأمم على السواء هى أسوأ بيئة تقتل الطموح ونفوس الأفراد والجماعات ، وهى بيئة تتلقى الطموح الفردى بكل وسائل التنبيط والالتهام والسخرية مما لا يصبر عليه إلا الأفئدة انشواذ وأولئك هم الزعماء الذين يظهرون فى أشد الساعات ظلاماً فيكون ظهورهم مبدأ عهد جديد فى التاريخ .

وإذا نظرنا إلى خلق الطموح في نفس الفرد وجد، أنه الرغبة في الحصول على ما هو أفضل ، ويختلف الهدف بعد ذلك فيكون في المال كما يكون في المركز الأدبي أو العلمي أو التنفيذي ... إلى آخر المطامح الإنسانية بحسب التربية الذاتية والبيئة العامة .

والرغبة في الحصول على ما هو أفضل هي التي تدعو الفرد — كما تدعو الجماعة — إلى بذل الجهد وإثارة العمل ، وإبتكار الوسائل ، وإلى المغامرة في بعض الأحيان إذا كانت الغاية من السمو بحيث تتطلب هذه المغامرة .

وهي — بهذا التحديد — شيء آخر غير السخط والتذمر ، وغير الطمع والحسد لدى النعمة ، وغير القلق الدائم والشعور بالشقاء والخرمان . فهذه كلها ردائل نفسية بينها وبين فضيلة الطموح بون بعيد .

ذلك أن الرجل الطموح هو في الغالب رجل سعيد متفائل ، لا تعرفه الرغبة فيما هو أفضل عن الاستمتاع بما هو كائن وعن الشعور بالسعادة فيما يبذله من الجهود للوصول إلى عياله القريبة أو البعيدة . بل إن للطموح في نفسه لذة ذاتية تلامح حياته ورضاء ومرحاً وهو بهذا على العكس من الساخطين المتذمرين الطامعين فيما لا يملكون ، الدائمى اشعور بالخرمان من طيبات الحياة . فهؤلاء غالباً من المتشائمين الذين لا تتعدى مطامعهم رغبات عامضة في نفوسهم ليس لها أهداف معلومة ، وهم في الغالب يكتفون بالشكوى والتذمر مما هم فيه دون أن يفكروا في تحقيق رغباتهم بالوسائل العملية والجهد الموصول .

على أن هناك فريقاً ثالثاً لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . أولئك هم الذين يعيشون في جهاد موصول وتعب مبذول في سبيل بلوغ مقاصد وغايات ، ولكنهم لا يشعرون بالغبطة لتحقيق هذه المطالب والغايات . ذلك أنهم يحتقرون كل ما يصالحون إياه ويطلبون المزيد دائماً . وهؤلاء قد ينتفع بهم المجتمع ولكنهم لا ينتفعون هم بأنفسهم .

ولو أنني حكمت في شأنهم لفضلت عليهم الفريق الأول على الرغم مما يبدو من فضل هؤلاء الآخرين . ذلك أن أولئك أكثر تحقيقاً لأغراض الحياة لأنهم يشعرون بأنفسهم وينفعون المجتمع ، ويشعرون بالغبطة والسعادة في الحياة فينشرون هذا الشعور في محيطهم . ومن الواجب أن نفهم أن الشعور بالسعادة غرض أصيل من أغراض الحياة ، بل من أغراض الأدباء ، فكلمنا أمكننا تحقيقه في أنفسنا أو في سوانا بالوسائل الشريفة الراقية ، كان ذلك فضلاً وكان عملاً جليلاً .

ومصر في حاجة إلى جيل من الشباب الطموح ، بالمعنى الذي حددناه للطموح . جيل يشعر بأن الحياة أهدافاً ، وأن انرق والتطور من أغراض الطبيعة الإنسانية ، ثم يكون في الوقت ذاته مرحاً سعيداً كلما حقق خطوة من برنامجه المرسوم ، فالفرح غاية كتحقيق الأهداف سواء بسواء .